كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين. وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة:٥) فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء. وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (الفرقان:٢٣).

وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص. ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب.

الباب الأول: في حقيقة النية ومعناها

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته

الباب الأول

في النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام:٥٢) والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ[١]: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوَ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ» وقال ﷺ[٢]: «أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الفَرْشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللهُ اعْلَمُ بِنِيَّتِهِ». وقال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء:٣٥) فجعل النية سبب التوفيق وقال ﷺ[٣]: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية. وقال ﷺ[٤]: «إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالاً حَسَنَةً فَتَصْعَدُ المَلائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخْتَمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ: أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي المَلائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّهُ نَوَاهُ».

وقال ﷺ[٥]: «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْماً وَمَالاً يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ،

---

(١) **حديث:** «إنما الأعمال بالنيات ... الحديث» متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

(٢) **حديث:** «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» أحمد (١:٣٩٧) من حديث ابن مسعود وفيه عبدالله بن لهيعة.

(٣) **حديث:** «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ... الحديث» مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٤) **حديث:** «إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث» الدار قطني من حديث أنس بإسناد حسن.

(٥) **حديث:** «الناس أربعة: رجل آتاه الله علما ومالا ... الحديث» ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ: «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحديث» وقد تقدم، ورواه الترمذي (٢٣٢٥) بزيادة وفيه: «وإنما الدنيا لأربعة نفر ... الحديث» وقال حسن صحيح.

فَيَقُولُ رَجُلٌ: لو آتَانِي اللهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فهمَا في الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ آتَانِيَ اللهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ» ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟

وكذلك في حديث أنس بن مالك، لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[١] قال: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا قَطَعْنَا وَادِياً ولا وَطِئْنَا مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا أَنْفَقْنَا نَفَقَةً ولا أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ إلا شَرَكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالمَدِينَةِ» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: «حَبَسَهُمُ العُذْرُ» فشركوا بحسن النية.

وفي حديث[٢] ابن مسعود: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً فَهُوَ لَهُ» فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس. وكذلك جاء في الخبر[٣]: إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره، فقتل على ذلك، فأضيف إلى نيته.

وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ[٤]: «مَنْ غَزَا وَهُوَ لا يَنْوِي إلا عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى» وقال[٥] أبي: استعنت رجلا يغزو معي، فقال: لا حتى تجعل لي جعلا، فجعلت له. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إلا مَا جَعَلْتَ لَهُ».

وروي في الإسرائيليات، أن رجلا مرّ بكثبان من رمل في مجاعة، فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له: إن الله

---

(١) **حديث** أنس: «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ... الحديث» البخاري (٢٨٣٩) مختصرا وأبو داود (٢٥٠٨).

(٢) **حديث** ابن مسعود: «من هاجر يبتغي شيئاً فهو له، هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس» الطبراني بإسناد جيد.

(٣) **حديث:** «إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار» لم أجد له أصلاً في الموصولات وإنما رواه أبو اسحق الفراوي في «السنن» من وجه مرسل.

(٤) **حديث:** «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى» النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة.

(٥) **حديث** أبي: «استعنت رجلا يغزو معي فقال: لا حتى تجعل لي جعلا، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له» الطبراني في «مسند الشاميين» ولأبي داود (٢٥٢٧) من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للغزو وسمى له ثلاثة دنانير، فقال النبي ﷺ: ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى».

(ط١) تعالى قد قبل صدقتك، وقد شكر حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به.

وقد ورد في أخبار كثيرة[١]: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» وفي حديث[٢] عبدالله بن عمرو: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونَ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا».

وفي حديث[٣] أم سلمة: إن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء فقلت: يا رسول الله: يكون فيهم المكره والأجير؟ فقال: «يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».

وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول[٤]: «إِنَّمَا يَقْتَتِلُ الْمُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ» وقال عليه السلام[٥]: «إِذَا التَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ الْمَلائِكَةُ تَكْتُبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلانٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلانٌ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلا فَلا تَقُولُوا فُلانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ». وعن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال[٦]: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» وفي حديث[٧] الأحنف عن

(١) **حديث:** «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» متفق عليه وقد تقدم.

(٢) **حديث** عبدالله بن عمرو: «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ... الحديث» ابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله: «وفارقها أرغب ما يكون فيها» ودون قوله: «وفارقها أزهد ما يكون فيها» وفيه زيادة، ولم أجده من حديث عبدالله بن عمرو.

(٣) **حديث** أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم: مسلم وأبو داود وقد تقدم.

(٤) **حديث:** «إنما يقتتل المقتتلون على النيات» ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص والنية» من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ: «إنما يبعث» ورويناه في فوائد تمام بلفظ: «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولابن ماجه (٤٢٢٩) من حديث أبي هريرة: «إنما يبعث الناس على نياتهم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(٥) **حديث:** «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا ... الحديث» ابن المبارك في «الزهد» موقوفا على ابن مسعود، وآخر الحديث مرفوع، ففي الصحيحين [خ(٧٤٥٨)، م(١٩٠٤)] من حديث أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

(٦) **حديث** جابر: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٧) **حديث** الأحنف عن أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» متفق عليه [خ(٣١)، م(٢٨٨٨)].

أبي بكرة: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قيل يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «لأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ».

وفي حديث[١] أبي هريرة: «مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لا يَنْوِي أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ وَمَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ لا يَنْوِي قَضَاءَهُ فهو سارق».

وقال ﷺ[٢]: «مَنْ تَطَيَّبَ لِلهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ».

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره. وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل.

وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل. وما دمت تنوي الخير فأنت بخير.

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى، فإني لا أحب أن يأتي عليَّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله. فقيل له: قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله. وكذلك قال بعض السلف: إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه للسلام: طوبى لعين نامت ولاتهم بمعصية، وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد:٣١) يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت

(١) **حديث** أبي هريرة: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان» أحمد (٤:٣٣٢) من حديث صهيب، ورواه ابن ماجه (٢٤١٥) مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق.

(٢) **حديث:** «من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ... الحديث» أبو الوليد الصفار في كتاب «الصلاة» من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلاً.

أستارنا. وقال الحسن: إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات.

وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة. ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل وقال بلال بن سعد: إن العبد ليقول قول مؤمن، فلا يدعه الله عَزَّ وَجَلَّ وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله تعالى حتى ينظر في ورعه. فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوي، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح مادون ذلك.

فإذن عماد الأعمال النيات، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه. وذلك لأن كل عمل، أعني كل حركة وسكون، اختياري، فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور علم، وإرادة، وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه، فلا بد وأن يعلم. ولا يعمل ما لم يرد، فلا بد من إرادة، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض، إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور. فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه، ودفع الضار المنافي عن نفسه. فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها. فخلق الله الهداية والمعرفة، وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا.

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له، فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه، وشهوة له باعثه عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق، ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل، لفقد الداعية المحركة إليه. فخلق الله تعالى له الميل، والرغبة والإرادة، وأعني به نزوعا في نفسه إليه، وتوجها في قلبه إليه.

ثم ذلك لا يكفيه، فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه، مريد تناوله، عاجز عنه لكونه زمنا؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول. والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة، أو الظن والاعتقاد، (1b)

وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق، ولا بد وأن يفعل، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه، انبعثت الإرادة، وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة، فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض، إما في الحال وإما في المآل.

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب، وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد. وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر، لكن الآخر انتهض عاضدا له، ومعاونا، فيخرج من هذ التقسيم أربعة أقسام، فلنذكر لكل واحد مثالا واسما.

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع، فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع، فإنه رأى السبع وعرفه ضارا، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع، لا نية له في القيام لغيره. وهذه النية تسمى خالصة، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول، فلنسم هذا مرافقة للبواعث.

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوى مجموعهما على إنهاض

القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا: أن يقصده قريبة الغني فيطلب درهما فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أو رثا بمجموعهما تحريك القلب، ولنسم هذا الجنس مشاركة.

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة، وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن بمجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية، ولنسم هذا الجنس المعاونة.

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه، فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل. إنما الأعمال بالنيات، لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها، وإنما الحكم للمتبوع.

بيان سر قوله ﷺ[1]: ((نِيَّةُ المُؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ))

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل، وهذا صحيح. ولكن ليس هو المراد، لأنه لو نوي أن يذكر الله بقلبه، أو يتفكر في مصالح المسلمين، فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكر.

(١) **حديث**: ((نية المؤمن خير من عمله)) الطبراني (٦:٢٢٨) من حديث سهل بن سعد، ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف. [قلت: ورواه الخطيب (٩:١٣٧)، وأبو نعيم (٣:٢٥٥)، وراجع ((الفوائد المجموعة)) (٢٥٠) - مصححه].

وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل، والأعمال لا تدوم، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة، والأعمال تدوم. والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله. وقد يقال: إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهو كذلك، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا، والنية بمجردها خير. وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير.

بل المعنى به أن كل طاعة تنظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل. فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته. والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما. فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفيهم أثر كل واحد، وقاس بعضها بالبعض. فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها، وبقاؤها، وسلامتها في الآخرة وسعادتها، وتنعمها بلقاء الله تعالى. فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى، عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطعت عنه شهواتها، حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له. وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما.

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة، حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة

لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك، تأكد ميله ورسخ، وعسر عليه النزوع. وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر، وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة، والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره، فلا يقدر على النزوع عنه. ولو فطم نفسه ابتداءً وخالف مقتضى ميله، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه، حتى يضعف وينكسر بسببه، وينقمع وينمحي.

وهكذا جميع الصفات، والخيرات، و الطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء، وارتعدت الفرائض، وتغير اللون.إلا أن القلب هو الأصل المتبوع، فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه. فالقلب هو المقصود، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود. لذلك قال النبي ﷺ[1]: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلُحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ» وقال عليه السلام[2]: «اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةِ» وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج:٣٧) وهي صفة القلب.

فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير، ويؤكد فيه الميل إليه، ليفرغ من شهوات الدنيا، ويكب على الفكر والذكر، وفي الضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض، لأنه متمكن من نفس المقصود وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر، وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة

(١) حديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم.

(٢) حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية» تقدم و لم أجده.

فالشرب خير من طلاء الصدر، لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح. فلا تظنن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العبادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنما من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه. ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوباً، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة. وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأغراض الدنيا لم ينتشر في جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً. فيقال: العبادة بغير نية باطلة. وهذا معناه إذا فعل عن غفلة فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاد شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا.

فهذا وجه كون النية خير من العمل. وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» لأن هم القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا، وهي غاية الحسنات. وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً. فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى. وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاقه عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم. والتقوى هاهنا أعني القلب ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ قَوْمَاً بِالمَدِينَةِ قَدْ شَرَكُونَا فِي جِهَادِنَا» كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير، وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد. وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات.

وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية، فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل، وقول، وحركة، وسكون، وجلب، ودفع، وذكر، وفكر، وغير ذلك مما يتصور إحصاؤه فهي ثلاثة أقسام: طاعات، ومعاصي، ومباحات. القسم الأول: المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية. فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاةً لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً، وعدواناً، ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر. فإن عرفه فهو معاند للشرع؛ وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم. والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟ هيهات، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه، واستمالة قلوب الناس، وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل.

ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد: هل تعرف شيئاً عن الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كما قال: لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم. فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل. فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل، ومنبع فساد العالم. والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام، ولم يجد بعد مهلة للتعلم.

وقد قال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣) وقال النبي ﷺ[1]: «لا يُعْذَرُ الجَاهِلُ عَلَى الجَهْلِ ولا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ ولا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ» ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس

(١) **حديث:** «لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ... الحديث» الطبراني في «الأوسط» وابن السني وأبو تميم في «رياضة المتعلمين» من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله: «لا يعذر الجاهل على الجهل» وقال: «لا ينبغي» بدل «ولا يحل» وقد تقدم في العلم.

بالمال الحرام، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مماراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين، واليتامى، والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال، يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى، ويتباعد عن التقوى، ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى. ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله، ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة ألف سنة مثلاً، وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» وقد قصدت بذلك نشر الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم، يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه، وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً لقاطع طريق، وأعدَّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء، والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله، فإن إعداد الخير والرباط، والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطرق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى، حتى قال رسول الله ﷺ[1]: «إِنَّ للهِ تَعَالَى ثَلاثُمَائَةِ خُلِقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ السَّخَاءُ» فليت شعري لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم؟ فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه، لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى، وقد يعاون به أعداء الله عَزَّ وَجَلَّ وهو الهوى. فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه، ولهواه على أخرته، وهو عاجز عنها لقلة فضله، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه

(١) **حديث:** «إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء» تقدم في كتاب المحبة والشوق.

تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام هجروه، ونفوه عن مجالسهم، وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة، وما تعوذوا من الفاجر الجاهل.

حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين، وهو أنملة من شارع المسلمين، فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم.

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها، والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام، وإستتباع الناس، والتقدم على الأقران.

فإذاً قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد. فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً. نعم للنية دخل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها، وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

القسم الثاني: الطاعات. وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له في كل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة[1] تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر.

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين؟ ويبلغ به درجات المقربين.

(١) حديث: «تضعيف الحسنة بعشر أمثالها» تقدم.

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله عليه وسلم حيث قال[1]: «مَنْ قَعَدَ فِي المَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللهَ تَعَالَى وَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ».

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون من جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف، وهو في معنى الصوم، وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ[2]: «رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي القُعُودُ فِي المَسَاجِدِ».

ورابعها: عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره، وللتذكر به، كما روي في الخبر[3]: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللهَ أَوْ يُذْكَرَ بِهِ كَانَ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى».

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيئ في صلاته، أو يتعاطى ما لا يحل له، فيأمره بالمعروف، ويرشده إلى الدين، فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه، فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخاً في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى

(١) حديث: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره» ابن حبان في «الضعفاء» من حديث سلمان والبيهقي في «الشعب» نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا، بإسناد صحيح، وقد تقدم في الصلاة.

(٢) حديث: «رهبانية أمتي القعود في المساجد» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في «جزء بن طوق»، والطبراني في «الكبير» من حديث أبي أمامة: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً كان له كأجر حج تاماً حجه» وإسناده جيد، وفي «الصحيحين» [خ(٦٦٢)، م(٦٦٩)] من حديث أبي هريرة: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفادا في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير، وتشمره له، وتفكره فيه، فبهذا تزكو الأعمال، وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث: المباحات. وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها، ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة. ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات، والخطوات، واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله؟ وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة. ولذلك قال ﷺ[1]: «حَلالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ» وفي حديث[2] عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيءٍ حَتَى عَنْ كُحْلِ عَينِيهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأَصْبَعَيْهِ وَعَنْ لَمْسَةِ ثَوْبِ أَخِيهِ» وفي خبر آخر: «مَنْ تَطَيَّبَ لله جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ».فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس؟ وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة، وفي سائر الأوقات، يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم، فإن ذلك ليس بمعصية، إلا أنه يسأل عنه. ومن نوقش الحساب عذب، ومن أبى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة، ولم ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفني، ويخسر زيادة نعيم ما يفني. (36)

(١) **حديث**: «حلالها حساب وحرامها عقاب» تقدم.

(٢) **حديث** معاذ: «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسة ثوب أخيه» لم أجد له إسناد .

وأما[1] النيات الحسنة، فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد، واحترام بيت الله، فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة، فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية، كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨) أشار به إلى أن التسبب في الشر شر. وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالب على قلبه. وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس، وليس ذلك من النية في شيء.

والمباحات كثيرة، ولا يمكن إحصاء النيات فيها، فقس بهذا الواحد ما عداه. ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي، وشربي، ونومي، ودخولي إلى الخلاء. وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب في بقاء البدن، وفراغ القلب من مهمات البدن، فهو معين على الدين، فمن قصدُه من الأكل التقوى على العبادة، ومن الوقاع تحصينُ دينه، وتطيب قلب أهله، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده، فتكثر به أمة محمد ﷺ ، كان مطيعا بأكله ونكاحه. وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة. ولذلك ينبغي أن يحسن نيته منهما مهما ضاع له مال ويقول: هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته

(١) **حديث**: «إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة» أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث» ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن سلام: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته» وفي إسناده اختلاف، وفي «الصحيحين» [خ(٨٨٦)، م(٢٠٦٨)] «أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة».

وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب، ففي الخبر[1]: «إنَّ العَبْدَ لَيُحَاسَبُ فَتَبْطُلُ أَعْمَالُهُ لِدُخولِ الآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ: يا رَبِّ هَذِهِ أَعْمَالٌ ما عَمِلْتُها قَطُّ فَيُقَالُ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَآذَوْكَ وَظَلَمُوكَ».

وفي الخبر[2]: «إنَّ العَبْدَ لَيُوافِي القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ لَوْ خُلِصَتْ لَهُ لَدَخَلَ الجَنَّةَ فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا وَشَتَمَ هَذا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ المَلائِكَةُ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَالِبُونَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِم ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكّاً إلى النَّارِ».

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك، فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨).

وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي، فتحرجت، ثم قلت تراب وما تراب، فتربته، فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري، فرآه مقلوب الثوب، فعرفه، فمد يده ليصلحه، ثم قبضها فلم يسوه، فسأله عن ذلك فقال: إني لبسته لله تعالى، ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: أنت أخذت لبنة من حائطي، وأخذت خيطاً من ثوبي.

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين. فإن كنت من أولي العزم والنهى، ولم تكن من المغترين، فانظر لنفسك الآن، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك، ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك؟ وماذا تقصد؟

---

(١) **حديث:** «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة ... الحديث» وفيه: «هذه أعمال الذين اغتابوك ... الحديث» أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصرا: «إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها، فيقول: هذه لي ولم أعملها فيقال: بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر» وفيه ابن لهيعة.

(٢) **حديث:** «إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال» وفيه: «ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا ... الحديث» تقدم مع اختلاف.

وما الذي تنال به من الدنيا؟ وما الذي يفوتك من الآخرة؟ وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك، وإلا فأمسك. ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك، فإن ترك الفعل فعل، ولابد له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور، ومشهورات الخيرات، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار، فقد روي عن زكريا عليه السلام، أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيراً لقوم، فقدموا له رغيفه، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده، فدخل عليه قوم، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده، وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلي الرغيف لأقوى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني، وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض.

وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل. فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه، فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد فأراد بأحد الوزرين النفاق، وبالثاني تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال. فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

(٨٩)

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» فيقول في نفسه عند تدريسه، أو تجارته، أو أكله؛ نويت أن أدرس لله، أو أتجر لله، أو آكل لله. ويظن ذلك نية. وهيهات، فذلك حديث نفس، وحديث لسان و فكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. و إنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلاً، وإما آجلاً. والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشيطان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه. أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي. فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء، وميله إليه، وتوجهه نحوه، إلا باكتساب أسبابه. وذلك مما قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى

الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس، الملائم لها. وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد فإنما بتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه. وذلك لا يمكن في كل وقت. والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص، وبالأحوال، وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً، ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث. ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه[1] أن إقامة سنة النكاح اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها، لا يمكن أن ينوي بالنكاح إتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية.

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أولا إيمانه بالشرع، ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد من ثقل المؤنه، وطول التعب، وغيره. فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب، فتحركه تلك الرغبة، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد. فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب، كان ناوياً.فإن لم يكن كذلك، فما يقدره في نفسه، ويردده في قلبه من قصد الولد، وسواس وهذيان.

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات، إذ لم تحضرهم النية. وكانوا يقولون: ليس تحضرنا فيه نية، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته، وكان يسرح شعره، أن هات المدرى. فقالت: أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم. فقيل له في ذلك، فقال: كان لي في المدرى نية، ولم تحضرني في المرآة نية. فتوقفت حتى هيأها الله تعالى.

ومات حماد بن سليمان -وكان أحد علماء أهل الكوفة- فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته: فقال: لو كان لي نية لفعلت. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت.

وكان طاوس لا يحدِّث إلا بنية. وكان يُسأل أن يحدِّث فلا يحدِّث، ولا يسأل فيبتدئ. فقيل له في ذلك، قال: أفتحبون أن أحدث بغير نية؟ إذا حضرتني النية فعلت.

(١) **حديث**: «النكاح سنة رسول الله ﷺ» تقدم في آداب النكاح.

وحكي أن داود بن المحبر لما صنّف كتاب العقل، جاءه أحمد بن حنبل، فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحاً ورده، فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف. فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانظر فيه بعين الخبر، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت. قال أحمد: فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت، فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً، فقد انتفعت به.

وقيل لطاوس: ادع لنا. فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد.

وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي، وهذا لأن النية تتبع النظر، فإذا تغير النظر تغيرت النية. وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية، لعلمهم أن النية روح العمل، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب. وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى؛ فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر في بعضها.

نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير، فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه، لم يتيسر له ذلك، بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار، ويحذر نفسه عقابها، أو نعيم الجنة، ويرغب نفسه فيها، وربما تنبعث له داعية ضعيفة، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته.

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، فلا تتيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها.

ونيات الناس في الطاعات أقسام. إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف، فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء، وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة، لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا. وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن، وموضع قضاء وطرهما الجنة. فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء، ودرجته درجة البله، وإنه لينالها بعمله، إذ أكثر أهل

(4b)

الجنة البله.

وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه، حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة، فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم. فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من طين، بل أشد، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين، أشد وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من طين. بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم، يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمل الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلاً، ولا تلتفت إليه. ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن، ولا يزالون مختلفين، كل حزب بما لديه فرحون، ولذلك خلقهم.

حكي أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عَزَّ وَجَلَّ في المنام، فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني. ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال: يا رب، كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إليّ. ورئي الشبلي بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد، قلت يوماً أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي؟

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول: من حضرت له نية في مباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه، و صارت الفضيلة في حقه نقيصة، لأن الأعمال بالنيات، وذلك مثل العفو، فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو، فيكون ذلك أفضل.

ومثل أن يكون له نية في الأكل، والشرب، والنوم، ليريح نفسه، ويتقوى على العبادات في المستقبل، وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم، والصلاة، فالأكل، والشرب، والنوم هو

الأفضل له. بل لو مل العبادة لمواظبته عليها، وسكن نشاطه، وضعفت رغبته، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو و حديث عاد نشاطه، فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو، فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه، روحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم.بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعده القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالضد. والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً، ليتوصل بذلك إلى الغلبة. والضعيف البصيرة قد يضحك به، ويتعجب منه، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه، ويوليه دبره، حيلة منه ليستجره إلى مضيق، فيكر عليه فيقهره.

فكذلك سلوك طريق الله تعالى، كله قتال مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما، وينال درجتهما، ومن الله حسن التوفيق.

الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته و درجاته

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة:٥) وقال: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ (الزمر:٣) وقال تعالى: ﴿إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ (النساء:١٤٦) وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف:١١٠) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.

وقال النبي ﷺ[1]: «ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ».

(١) حديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله» الترمذي (٢٦٥٨) وصححه من حديث النعمان بن بشير.

وعن[١] مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا نَصَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الأُمَّةَ، بِضُعَفَائِهَا وَدَعَوتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ وَصَلاتِهِمْ».

وعن[٢] الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الإِخْلاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا بقلة العمل، واهتموا للقبول، فإن النبي ﷺ[٣] قال لمعاذ بن جبل: «أَخْلِصِ العَمَلَ يُجْزِكَ مِنْهُ القَلِيلُ».

وقال عليه السلام[٤]: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ للهِ العَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً إلا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» وقال عليه السلام[٥]: «أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ العِلْمَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا صَنَعْتَ فِي مَا عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ عَالِمٌ أَلا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَوَادٌ أَلا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ

---

(١) **حديث** مصعب بن سعد عن أبيه: «أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم» رواه النسائي (٦:٤٥) وهو عند البخاري (٢٨٩٦) بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

(٢) **حديث** الحسن مرسلاً: «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي» رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً، يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص فقال، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي، عن عبدالواحد بن زيد، عن الحسن، عن حذيفة، عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبدالواحد كلاهما متروك، وهما من الزهاد، ورواه أبو القاسم القشيري في «الرسالة» من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٣) **حديث**: «أنه قال لمعاذ: أخلص العمل يجزك منه القليل» أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث معاذ وإسناده منقطع.

(٤) **حديث**: «ما من عبد يخلص لله أربعين يوماً» ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» عن أبي موسى.

(٥) **حديث**: «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم ... الحديث» وقد تقدم.

أُمِرْتُ بالجِهَادِ فَقَاتَلْتُ حَتَى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ شُجَاعٌ أَلا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» قال أبو هريرة: ثم خبط رسول الله ﷺ على فخذي وقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَومَ القِيَامَةِ» فدخل راوي هذا الحديث على معاوية، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية (هود:١٥).

(5a)

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً، فجاءه قوم فقالوا: إن هاهنا قوماً يعبدون شجرةً من دون الله تعالى. فغضب لذلك، وأخذ فأسه على عاتقه، وقصد الشجرة ليقطعها. فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة. قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك. فقال: إن هذا من عبادتي. قال: فإني لا أتركك أن تقطعها. فقاتله، فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا و لم يفرضه عليك، وما تعبدها أنت، وما عليك من غيرك و لله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فنابذه للقتال، فغلبه العابد وصرعه، وقعد على صدره، فعجز إبليس، فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك، وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه، فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتواسي جيرانك، وتشبع وتستغني عن الناس، قال: نعم. قال: فارجع عن هذا الأمر، ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المسلمين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ، لست نبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له. فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما، وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة. فقال: كذبت والله، ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال: فتناوله

العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك. فنظر العابد، فإذا لا طاقة له به. قال: يا هذا غلبتني فخل عني، وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله لك. وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى: ﴿إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٣) إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس. وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صُفي له، ومن خَلَط خُلِط عليه.

ورئي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات. وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات، وموت حمار ليس فيها فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، و لو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك، وفي رواية، قال: وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي، فوجدت ذلك لا عليَّ ولا لي، قال سفيان لما سمع هذا: ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من الفرث، والدم، وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء، من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء، فسرقت درة، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى تفتش، فكانوا يفتشون واحِدةً واحدة، حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله تعالى بالإخلاص، وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرة مع

تلك المرأة، فصاحوا: أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة.

وقال بعض الصوفية: كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء، فقال أبو عبيد: لا، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، فقلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية، وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى، لأني أدخل في عمل الله شيئاً غيره، فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة. ويروى عن بعضهم، قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت: أشتريها فأنتفع بها في غزوي، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها، فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة فأملى عليه: خرج فلان متنزهاً، وفلان مرائياً، وفلان تاجراً، وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي، وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري، ما خرجت أتجر، وما معي تجارة أتجر فيها، ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت، وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه، وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عَزَّ وَجَلَّ فيه بما يرى.

وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبع مائة بعلو، وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز، ويقال: العلم بزر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص، وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً، ومنعه ثلاثاً، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة، ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة، ومنعه الصدق فيها.

وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط، وقال الجنيد: إن لله عباداً عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين، فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل، وتخلص فيما تعمل، فإذا أنت قد سعدت في هذين فزت بالدارين.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً

ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصاً، قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل:٦٦) فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به. والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك، في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات، وقد ذكرنا حقيقة النية، وإنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً، بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه، إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات، وأقل أموره ما ورد في الخبر، من «إِنَّ المُرائِي يُدعَى يَومَ القِيَامَةِ بِأَربَعَةِ أَسَامٍ: يَا مُرائِي، يَا مَخَادِعُ، يا مُشرِكُ، يَا كَافِرُ»[1] وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب من عدو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو بشغل هو فيه، فأراد أن يستريح منه أياماً، أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله، أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقاً بالدنيا أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو توضأ ليتنظف، أو يتبرد، أو اغتسل

(١) حديث: «إن المرائي يدعى يوم القيامة يا مرائي يا مخادع ... الحديث» ابن أبي الدنيا في كتاب «السنة والإخلاص» وقد تقدم.

لتطيب رائحته، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله، أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك، وقد قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء على الشركة.

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته، قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب، إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية.

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني، أو أقوى منه، أو أضعف، لكل واحد حكم آخر كما سنذكره، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصد القرب فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع، حتى لا يحتاج إلى الأكل، فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده، لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكل أو الشرب، أو قضى حاجته. كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً

حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة، وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً.

فإذاً علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله، ويكون فيها مغروراً، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول، لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي، وسبب استراحة قلبي، من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قل ما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (الزمر:٤٧، ٤٨) وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف:١٠٣، ١٠٤) وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق، وتسليمه للأمر أفضل وأجذل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه، أعود عليه من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر فرح به. وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع، ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان، والنفس، وطال اشتغاله بامتحانها. فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٣) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشيطان وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات، والخالص ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة. وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى، فقيل لسهل أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة

(٦٥)

من الحظوظ، وقال: هذا من صفات الإلهية، وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرد المعرفة، والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه، وهؤلاء لو عوضوا عماهم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه، ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ، وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره.

وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط، ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء، وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الإخلاص وصفا عن العلائق، وهذا أجمع للمقاصد، وقال المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء، وكذلك قول الخواص: من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية.

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد ، وهذا أيضاً تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص، وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

وهذا هو البيان الكامل، والأقاويل في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ[1] إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ» أي لا تعبد هواك و نفسك ولا تعبد إلا ربك؛ و تستقيم في عبادته، كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

(١) **حديث:** «سئل عن الإخلاص فقال: أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت» لم أره بهذا اللفظ، وللترمذي (٢٤١٠) وصححه، وابن ماجه (٣٩٧٢) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي: «قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: قل ربي الله ثم استقم» وهو عند مسلم (٣٨) بلفظ: «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم».

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص، بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوي مع الجلاء، وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، فلنذكر منه مثالاً فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته، ثم نظر إليه جماعة، أو دخل عليه داخل، فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح، ولا يزدريك، ولا يغتابك، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان فيأتي في معرض الخير، ويقول أنت متبوع ومقتدى بك، ومنظور إليك، وما تفعله يؤثر عنك، ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه، وعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضاً عين الرياء، ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة؟ ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به، هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه، فانتشر نوره إلى غيره، فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه، وأما هو فيطالب بتلبيسه، ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك، ويتنبه لكيد الشيطان؛ ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك، فهذا أيضاً من الرياء الغامض، لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته. ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس، ثم يستحي

من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ، وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملا والخلأ جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته، فيعجز الشيطان أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه تفطن لذلك، فيقول الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله، ومن أنت واقف بين يديه، واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه، وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة، كما يألفه في الملأ. ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً، فما دام يفرق في أحواله في مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا[1] الشرك أخفى في ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، كما ورد به الخبر، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات، حتى في كحل العين، وقص الشارب، وطيب يوم الجمعة، ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة، وللنفس فيها حظ خفي، لارتباط نظر الخلق ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك، ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركيها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها، لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع، فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف.

وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد، واستراحة الطبع إليه،

(1) حديث: «الشرك أخفى في ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء» تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء.

ويتبين ذلك في ميله إلا أحد المسجدين، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس، ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه، ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير، وغش القلب، ودغل الشيطان وخبث النفس، أغمض من ذلك وأدق كثيراً، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال، حتى يخلص عنها، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها، كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموه واستدارته، وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير، خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

فهكذا يتفاوت أمر العبادات، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال، لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً، فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، بل امتزج به شوب من الرياء وحظوظ النفس، فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثواباً، أم يقتضي عقاباً، أم لا يقتضي شيئاً أصلاً، فلا يكون له ولا عليه؟ وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً، وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب وظاهر[1] الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه، والذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه،

(1) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له، قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض: أبو داود (٢٥١٦) ومن حديث أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له ... الحديث» وللنسائي (٢٥:٦) من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: «أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: لا شيء له، فأعادها ثلاثة مرات يقول لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه» وللترمذي وقال: غريب، وابن حبان من حديث أبي هريرة: «الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه، قال له أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ (الزلزلة:٧، ٨) ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ (النساء:٤٠) فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقي زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب، فقد قوى أيضاً تلك الصفة، وأحدهما مهلك، والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوّته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخلو الغالب على أثر، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر، ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله، أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً، فقد عاد إلى ما كان، فلم يكن له ولا عليه. وإن كان الفعل مما يقربه شبرين، والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر. وقد قال النبي ﷺ[1]: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا» فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة.

ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة، وتجارته غير موقوفة عليه، فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة، ولا ثواب فيه، مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرك (7b)

(١) **حديث**: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» تقدم في رياضة النفس والتوبة.

الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما. وعندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لا غنيمة فيها. ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي، والمزعج القوي، هو إعلاء كلمة الله تعالى، و إنما الرغبة في الغنيمة على التبعية، فلا يحبط به الثواب. ثم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء للثواب محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة، والتجارة، وسائر الحظوظ، فقد روى[1] طاوس وعدة من التابعين، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف، أو قال: يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف:١١٠) وقد قصد الأجر والحمد جميعاً. وروى[2] معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ» وقال[3] أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ».

وروي عن عبادة، أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملاً فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي. وروى[4] أبو موسى أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حميةً، والرجل يقاتل شجاعةً، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فأيهم في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال[5] ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ

(١) **حديث** طاوس وعدة من التابعين: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف -أو قال يتصدق- فيحب أن يحمد ويأجر، فنزلت: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه﴾» ابن أبي الدنيا في كتاب «السنن» والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلاً، وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٢) **حديث** معاذ: «أدنى الرياء شرك» الطبراني والحاكم وتقدم فيه.

(٣) **حديث** أبي هريرة: «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له» تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه، وتقدم فيه حديث أبي هريرة: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» وفي رواية مالك في «الموطأ» «فهو له كله».

(٤) **حديث** أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» تقدم فيه.

(٥) **حديث** ابن مسعود: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له» تقدم في الباب الذي قبله.

هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ».

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه. بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا، كقوله: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا» وكان ذلك هو الأغلب على همه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان، لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام، لما فيه من الرياء وتغير العبادة عن موضعها. وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما، ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب.

ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر. فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: ١١٠) أي لا يرجو اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط.

ويجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص، وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو -وإن لم يكن غنيمة- وقدر على غزو طائفتين من الكفار، إحداهما غنية والأخرى فقيرة، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله والغنيمة، لا ثواب له على غزوه ألبتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك. فإن هذا حرج في الدين، ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قد لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب. فأما أن يكون في إحباطه فلا.

نعم الإنسان فيه على خطر عظيم، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه، وإن بالغ في الاحتياط.

فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول، خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر. وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتقد بما ظهر من عملي. وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: جاورت هذا البيت ستين سنة، وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا علي. ومع هذا لا ينبغي أن يترك العمل عند

خوف الآفة والرياء، فإن ذلك بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً. وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً يريد إخلاص الحركات، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه في الإخلاص، فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره، فاخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها. فقال أبو سعيد: لا تفعل، إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل، واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل، وإنما قلت لك أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) وقال النبي ﷺ[1]: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَالفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً».

ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتقة منه، والله تعالى وصف الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم: ٤١) وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم: ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم: ٥٦).

وقال ابن عباس: أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء، وحسن الخلق، والشكر.

وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقال أبو عبدالله الرملي: رأيت منصوراً الدينوري في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك (8a)

(١) حديث: «إن الصدق يهدي إلى البر ... الحديث» متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

قال: غفر لي، ورحمني، وأعطاني ما لم أؤمل. فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب.

وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً؟ فقال له: لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكتاني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان: على الحق، والصدق، والعدل. فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول.

وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر:٦٠) قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته.

وصاح رجل في مجلس الشبلي، ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذباً على الله تعالى فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون.

وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال، أنها إذا صحت ففيها النجاة، ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم.

وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة. اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها. لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وقال أبو بكر الوراق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى، والرفق فيما بينك

وبين الخلق. وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى ... نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوي الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق، والسخاء، والشجاعة، فقيل زدنا: فقال: التُقَى، والحياء، وطيب الغذاء.

وعن[1] ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «قَوْلُ الحَقِّ وَالعَمَلُ بِالصِّدْقِ». وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب:٨) قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان.صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان. وذلك لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو المستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق.

ولكن لهذا الصدق كمالان. أحدهما: الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب. وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه. إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن إطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك

(١) **حديث** ابن عباس: «سئل عن الكمال فقال: قول الحق والعمل بالصدق» لم أجده بهذا اللفظ.

فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه.

نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً[1] كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد. وليس هذا كذب في شيء.

قال رسول الله ﷺ[2]: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَنْمَى خَيْرًا» ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هاهنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده، وصدقت نيته، وتجردت للخير إرادته، صار صادقاً وصديقاً، كيفما كان لفظه.

ثم التعريض فيه أولى، وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره، فقال لزوجته: خطي بإصبعك دائرة، وضعي الإصبع على الدائرة، وقولي ليس هو هاهنا. واحترز بذلك عن الكذب، ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدقاً، وأفهم الظالم أنه ليس في الدار.

فالكمال الأول في اللفظ: أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني، أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى، مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته، فهو كذب. وكقوله: إياك نعبد. وقوله: أنا عبد الله فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية، وكان له مطلب سوى الله، لم يكن كلامه صدقاً. ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز عن تحقيقه، فإنه إن كان عبداً لنفسه، أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته، لم يكن صادقاً في قوله.

وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له. كما قال عيسى عليه السلام: يا عبد الدنيا. وقال

(١) **حديث:** «كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره» متفق عليه [خ(٤٤١٨)، م(٢٧٦٩)] من حديث كعب بن مالك.

(٢) **حديث:** «ليس بكاذب من أصلح بين الناس ... الحديث» متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم.

نبينا ﷺ[1]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ» سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له. وإنما العبد الحق لله عَزَّ وَجَلَّ من أعتق أولاً من غير الله تعالى، فصار حراً مطلقاً. فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغاً، فحلت فيه العبودية لله، فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية، وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد، فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق من غير الله فصار حراً، ثم عاد فأعتق عن نفسه، وصار مفقوداً لنفسه، موجوداً لسيده ومولاه، إن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب، والتماس، واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى. وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة. ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً، كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث[2] الثلاثة، حين يُسأل العالم: ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم، فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته.

وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون:١) وقد قالوا إنك لرسول الله، وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر، وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول، فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به. فيرجع أحد معالم الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل

(١) **حديث:** «تعس عبد الدينار ... الحديث» البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٢) **حديث:** «الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ... الحديث» تقدم.

صادق فلا بد وأن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدواً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق.

فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد، وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكأن الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي، أو كانت ضعيفة. فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه:لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلا أن يرضى بالقتل فيه، ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقص عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم. فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم. وهذا يضاد الصدق فيه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣) وقد روي[1] عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، فشق ذلك على قلبه وقال:

(١) **حديث** أنس: «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ ... الحديث، في قتاله بأحد حتى قتل ووجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول: ﴿رجال صدقوا ... الآية﴾» الترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠١) وهو عند البخاري (٤٧٨٣) مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر.

أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لأن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال فشهد أحداً في العام القابل. فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، ما بين رمية، وضربة، وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بثيابه. فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣).

ووقف[1] رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ (الأحزاب:٢٣)، وقال[2] فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَى قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ هَكَذَا» ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو رسول الله ﷺ، «ورَجُلٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ العَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَرَجَةِ الثَانِيَةِ ورَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَرَجَةِ الثَالِثَةِ وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَاكَ فِي الدَرَجَةِ الرَابِعَةِ». وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود، فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالاً لنصدقن، فبخلوا به، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة:٧٥).

وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٥-٧٧) فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً.

(١) **حديث:** «وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية» أبو نعيم في «الحلية» من رواية عبيد بن عمير مرسلاً.

(٢) **حديث** فضالة بن عبيد، عن عمر بن الخطاب: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان ... الحديث» الترمذي (١٦٤٤) وقال حسن.

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن النفس قد تسخوا بالعزم، ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم.

وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد. فقالا لي: صدقت. وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمره في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته، ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته. فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال. وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار، وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار. فهذا غير صادق في عمله، وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق، ولا مرائياً إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره. ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر، ولبس ثياب الأشرار، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره، فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن.

فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق. ولذلك قال رسول الله ﷺ[1]: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلَانِيَّتِي وَاجْعَلْ عَلَانِيَّتِي صَالِحَةً» وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف. وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل. وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا

(١) **حديث**: «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ... الحديث» تقدم ولم أجده.

فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبدالغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدي حقاً. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار؟ وقال عبدالواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه.

وكان أبو عبدالرحمن الزاهد يقول: إلهي، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهر جوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. فإذاً مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها، الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف، والرجاء، والتعظيم، والزهد، والرضا، والتوكل، والحب، وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادٍ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها. وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته، سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال: فلان صدق القتال، ويقال هذا الخوف الصادق. وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (الحجرات:١٥) إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجارت:١٥) وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (البقرة:١٧٧) إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ (البقرة:١٧٧) وسئل[1] أبو ذر عن الإيمان، فقرأ هذه الآية. فقيل له سألناك عن الإيمان. فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية.

ولنضرب للخوف مثلاً، فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكن خوفه غير صادق، أي غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً، أو قاطع طريق في سفره، كيف يصفر لونه، وترتعد فرائصه. ويتنغص عليه عيشه، ويتعذر عليه أكله ونومه، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة، والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند

(١) **حديث** أبي ذر: «سألته عن الإيمان، فقرأ قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله وباليوم الآخر -إلى قوله- أولئك الذين صدقوا﴾» رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» بأسانيد منقطعة، لم أجد له إسناداً.

جريان معصية عليه. ولذلك قال ﷺ[1]: «لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا ولا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا».

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي. فإذا قوي سمي صادقاً فيه.

فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ[2] لجبريل: «أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ التِي هِيَ صُورَتُكَ» فقال لا تطيق ذلك قال: «بَلْ أَرِنِي» فواعده البقيع في ليلة مقمرة، فأتاه، فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء، فوقع النبي ﷺ مغشياً عليه، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ: «مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ هَكَذَا» قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع، يعني كالعصفور الصغير. فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة، فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر: قال رسول الله ﷺ[3]: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالمَلأِ الأَعْلَى كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى» يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير. وكذلك الصحابة كانوا خائفين، وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه، إلا أن بعض الحمق أهون من بعض.

وقال النبي ﷺ[4]: «لا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ

(1) حديث: لم أر مثل النار نام هاربها ... الحديث» تقدم.

(2) حديث: «قال لجبريل: أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك، فقال: لا تطيق ذلك ... الحديث» تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(3) حديث: «مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله ... الحديث» محمد بن نصر في كتاب «تعظيم قدر الصلاة» والبيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أنس، وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور، وقال البيهقي: ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد، وهذا مرسل.

(4) حديث: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير» لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع.

اللهِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلى نَفْسِهِ فَيَجِدُهَا أَحْقَرَ حَقِيرٍ».

فالصادق إذاً في جميع هذه المقامات عزيز، ثم درجات الصدق لا نهاية لها. وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهن قوي، وفيما سواهن ضعيف: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها. ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها. وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام. فهذا صدق في هذه الأمور. وكم من قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة، واتبعوا الجنائز، ولم يبلغوا هذا المبلغ.

فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني. نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ (الحديد:١٩) وصدق الطاعة. لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق، وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام.

وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ (الحج:٧٨). وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال، لأنظر كيف صدقه. فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وإن وجدته جذوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي.

فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة إطلاع الخلق عليها.

تم كتاب الصدق والإخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله.

منتصف صفحة (١٥٥)

فليت خيالك نصب لعيني * فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى اوحى الله الى عيسى عليه السلام اني اذا اطلعت على سر عبد فلم اجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الارض حتى سال منه فرات وقال ابراهيم بن ادهم الهي انك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما اركن اليه وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال السري رحمه الله من احب الله عاش ومن مال الى الدنيا والاحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله اني لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن افضل الاعمال فقال الرضى عن الله تعالى والحب له وقال ابو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة انما يحب من مولاه مولاه اشتاق الى لقائه ابلب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة أن تمحو ازلك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك اليك وقيل المحبة القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحسبان سهل عن المحبة فقال عطف الله قلب عبده المشاهدة بعد الفهم للمرادمنه وقيل لمعلم المحبة على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لان هاتين المزاتين يقيلان مع اهل ايمنه في غيرهما وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل احبه واذا احبه اقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وترحه في الآخرة وقال عبد الله ابن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها فعلى ثقة انت من عملك قالت لا ولكن لحبي اياه وحسن ظني به افتراه يعذبني وأنا احبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الي وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود عبدي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود أحوج ما يكون العبد الي اذا استغنى عني وأرحم ما يكون بعبدي اذا ادبر عني وأجل ما يكون عندي اذا رجع الي وقال ابو خالد الصفار لقي نبي من الانبياء عليه السلام معاشر العباد تعملون على امر لسنا معاشر الانبياء نعمل عليه انتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن على المحبة والشوق وقال الشبلي رحمه الله اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود ذكري للذاكرين وثنائي للمثنين وزيارتي للمشتاقين وانا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام يا آدم من احب حبيبا صدق قوله وزين انس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق اليه جد في مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا اراه وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي وقام حتى انحنى وصلى حتى اقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته اليك شوقا مني اليك وعن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر رداءي والرضى غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنودا مجندة فارواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيته في جبل اللكام رجلا اسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر الى حجر وهو يقول

الشوق والهوى * صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله اشعلها في قلوب اوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح المحبة والانس والشوق والرضى * فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضى والانس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق

* (كتاب النية والاخلاص والصدق وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

نحمد الله حمد الشاكرين * ونؤمن به ايمان الموقنين * ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين * ونشهد أن لا اله الا الله رب العالمين * وخالق السموات والارضين * ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين * أن يعبدوه عبادة المخلصين * فقال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين * فالله الا الدين الخالص المتين * فانه اغنى الاغنياء عن شرك

المشاركين * والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين * وعلى جميع النبيين * وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن أن لا وصول الى السعادة * الا بالعلم والعبادة * فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم * فالعمل بغير نية عناء * والنية بغير اخلاص رياء * وهو للنفاق كفاء * ومع العصيان سواء * والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء * وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بارادة غير الله منثورا * وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية او كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص او كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية اولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معانى الصدق والاخلاص فى ثلاثة ابواب (الباب الاول) فى حقيقة النية ومعناها (الباب الثانى) فى الاخلاص وحقائقه (الباب الثالث) فى الصدق وحقيقته

(الباب الاول فى النية) وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الاعمال [illegible] وبيان خروج النية عن الاختيار

* (بيان فضيلة النية) *

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هى النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم اكثر شهداء امتى اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته وقال تعالى ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيأ من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس اربعة رجل آتاه الله [illegible] علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ورجل آتاه الله تعالى علما ولم يؤته مالا فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء الا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه وكذلك فى حديث انس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال ان بالمدينة اقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية وفى حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيأ فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس وكذلك جاء فى الخبر ان رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف الى نيته وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله ما نوى وقال ابى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له وروى فى الاسرائيليات ان رجلا مر بكثبان من رمل فى مجاعة فقال فى نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى الى نبيهم أن قل له ان الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما لتصدقت به وقد ورد فى أخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفى حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها ارغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها ازهد ما يكون فيها وفى حديث ام سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما يقتتل المقتتلون على النيات وقال عليه السلام اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية الا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث كل عبد على ما مات عليه وفى حديث الاحنف عن ابى بكرة اذا التقى

المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه
وفي حديث ابي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو
سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم
القيامة وريحه انتن من الجيفة (وأما الآثار) فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه افضل الاعمال أداء ما افترض
الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز
اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب
عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت بجميع جوارحه
بالدنيا لرددته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثوري كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون
العمل وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ومادمت تنوي الخير فأنت بخير وكان بعض المريدين يطوف على
العلماء يقول من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله تعالى فاني لا احب أن يأتي علي ساعة من ليل او نهار الا وأنا عامل
من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت او تركته فهم بعمله فان الهام بعمله
كعامله وكذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم اكثر من أن تحصوها وان ذنوبكم اخفى من أن تفقدوها
أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولم تهم بمعصية وانتبهت
الى غير اثم وقال ابو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ وليبلونكم حتى نعلم
المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم يبكي ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا وقال الحسن
انما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات وقال ابو هريرة مكتوب في التوراة ما اريد به وجهي فقليله
كثير وما اريد به غيري فكثيره قليل وقال بلال بن سعدان العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل ورعا حتى
ينظر في عمله فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان ورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فما اراد أن
يصلح ما دون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية ليصير بها خيرا والنية في نفسها خير وان تعذر العمل
بعائق

* (بيان حقيقة النية) *

اعلم أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل
يقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل اعني كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم
الا بثلاثة أمور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة
ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما في الحال او في المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض
الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فيحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه
فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يبصر الغذاء
ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي
الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف انه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم
يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم انه موافق ولا يمكنه التناول لعدم
الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة وأعني به نزوعا في نفسه اليه
وتوجها في قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة
والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم
بالمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد
وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت
القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة
المتوسطة وهي الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض اما في الحال واما في المآل فالمحرك
الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض
القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون
بباعثين اجتمعا في فعل واحد واذا كان باعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانتهاض القدرة وقد يكون
كل واحد قاصرا عليه الا بالاجتماع وقد يكون احدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومقارنا له

من هذا التقسيم اربعة اقسام فلنذكر لكل واحد مثالا واسما (أما الاول) فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه خلص عن مشاركة غيره وممازجته (وأما الثاني) فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شئ يقدران من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وانه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب ايضا فيه وكذلك من امره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم انه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لاجل انه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الاول فلنسم هذا مرافقة البواعث (والثالث) أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوى مجموعهما على انهاض القدرة ومثاله في [illegible] ضعيفان على حمل ما لا ينفرد احدهما به ومثاله من غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما ولا [illegible] الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا اورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة (والرابع) أن يكون احد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو مشوب تطرق الى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني اما أن يكون رفيقا او شريكا او معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الاول [illegible] أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لا [illegible] تبعيها وانما الحكم للمتبوع

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله)

اعلم انه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر والعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لانه لو نوى أن يذكر الله بقلبه او يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم الى آخر العمل والاعمال لا تدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية اعمال الصلاة قد لا تدوم الا في لحظات معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد اذ العمل بلا نية او على الغفلة لا خير فيه اصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين في اصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل اى لكل واحد منهما اثر في المقصود واثر النية اكثر من اثر العمل [illegible] نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما معا لان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه وبلغ اثر الطريق في الاتصال الى المقصود وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعني به انه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك الا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الاغذية مختلفة الآثار فيها وفهم اثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله الا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه الا من عرفه ولن يأنس به الا من طال ذكره له فالانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة

ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا انقطع عنه شهواتها
حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم أن سعادته
فى الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما واذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما
يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وارادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء
والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل الى طلب العلم او طلب الرياسة لا يكون ميله فى بدايته
الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وترتب بسببه الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر
النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال واعمق بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه
طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه دفعا دوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة تأكد ميله حتى يخرج امره عن
اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو قطع نفسه اجتذبه وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة
الميل ويكون ذلك ثبرا وردة فما فى وجهه حتى يضعف وينكسر بتعبه وينقمع وينمحى وهكذا جميع الصفات
والطاعات كلها هى التى ترادبها الآخرة والشرور كلها هى التى ترادبها الدنيا لا الآخرة وميل المتغيل الى
الاخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك الا بالمواظبة على
وترك المعاصى بالجوارح لان بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى انه يتأثر كل واحد منهما بالآخر
اصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب اذا تألم بعلمه بموت عزيز من اعزته او بهجوم امر مخوف
وارتعدت الفرائص وتغير اللون الا أن القلب هو الاصل المتبوع فكأنه الامير والراعى والجوارح كالخدم والرعايا
والاتباع فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضاء آلات موصلة الى المقصود ولذلك
قال النبى صلى الله عليه وسلم ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وقال عليه السلام اللهم أصلح الراعى
والرعية وأراد بالراعى القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم
فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون
جملتها افضل لانها عبارة عن ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضا من الاعمال بالجوارح أن يعود القلب
ويؤكد فيه الميل اليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويقبل على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى
لانه متمكن من نفس المقصود وهذا كما أن المعدة اذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وقد تداوى بالشرب
والدواء الواصل الى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر لان طلاء الصدر أيضا انما يريد به أن يسرى
فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها اذا المطلوب منها تغيير القلوب
صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والارض بل من
حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب فان من يجد فى نفسه تواضعا فاذا استكان باعضائه وصورها
بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه ولهذا لم يكن
العمل بغير نية مفيدا اصلا لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه او ظان انه يمسح ثوبا لم يتشمر من اعضائه
لتأكيد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم يتشمر من جبهته ووضعها على الارض
قلبه بتأكيد التواضع فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب
يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه هذا اذا فعل عن غفلة فاذا قصد به رياء او تعظيم
وجوده كعدمه بل زاده شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى اكد الصفة المطلوب قمعها وهى صفة الرياء
التى هى من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل وبهذا ايضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم من
هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية
الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن
حب الدنيا وبذلها ايثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل عائق
فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى ههنا اعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
ان قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا كما تقدم ذكره لان قلوبهم فى صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة
فى طلب الشهادة واعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وانما فارقوهم بالابدان لعوائق تخص الانسان
الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعانى تفهم جميع الاحاديث التى اوردناها
فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالاعادة

(بيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الاعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور احصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات * (القسم الاول المعاصي) * وهي لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره او يطعم فقيرا من مال غيره او يبني مدرسة او مسجدا او رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فان القلب اذا كان مائلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ما عصى الله تعالى بمعصية اعظم من الجهل قيل يا ابا محمد هل تعرف شيأ اشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه انه عالم فكيف يتعلم وكذلك افضل ما اطيع الله تعالى به العلم [illegible] العلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل فان من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب الناس عليه [illegible] المزخرفة التي هي وسائلهم الى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور الا اذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم وقد قال الله سبحانه فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار المشغولين بالفسق والفجور والقاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته ناشئا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وأمثاله ويتخذونه ايضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع الى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد [illegible] وقصده ومشاهدته انواع المعاصي من اقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثاره [illegible] في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انما الاعمال بالنيات وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به الا أن يستعين به على الخير واتمام حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول انما اردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان اعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من افضل القربات فان هو صرفه الى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الاخلاق الى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء فليت شعري لم [illegible] السخاء ولم وجب عليه أن ينظر الى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على [illegible] أن يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان واعداء الله وقد يعلمون به اعداء الله [illegible] وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عن المقاومة فضله فكيف يجوز امداده بما يتمكن به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون احوال من يتردد اليهم فلو رأوا [illegible] نقصا في نقل من النوافل انكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تعليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلبه الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل * حكي عن بعض اصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله انه كان يتردد اليه سنين ثم اتفق أن اعرض عنه احمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال بلغني انك طينت حائطا دارك من جانب الشارع وقد اخذت قدر سمك الطين وهو أقل من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلابة العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس

على الاغبياء وأتباع الشيطان وان كانوا ارباب الطيالسة والاكمام الواسعة وأصحاب الالسنة الطويلة والفضول
الكثير أعنى الفضل من العلوم التى لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء اليها بل هى
العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الاقران فاذا قوله عليه السلام
انما الاعمال بالنيات يختص من الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد
والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنها اذا انضاف
اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة * (القسم الثانى الطاعات) * وهى
مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها أما الاصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير فان نوى الرياء
صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها الخيرات كثيرة
فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به النص ومثاله القعود
فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين فاولها
أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] قال انه
من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فتكون [illegible]
انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء [illegible] عن الشهوات
والترددات فان الاعتكاف كف وهو فى معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رهبانية
امتى القعود فى المساجد ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه
بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله اولاستماع ذكره والتذكر به كما روى فى الخبر من غدا الى المسجد ليذكر الله
تعالى او يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى وسادسها أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ
المسجد لا يخلو عمن يسىء فى صلاته او يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا فى خيره
الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة [illegible]
اهل الدين المحبين لله وفى الله وثامنها أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله [illegible]
هتك الحرمة وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما ما من آدمى من الاختلاف الى المسجد رزقه الله احدى [illegible]
أخا مستفادا فى الله او رحمة مستنزلة او علما مستطرفا او كلمة تدله على هدى او تصرفه عن ردى او يترك الذنوب
خشية او حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما
تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر وجده فى طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف [illegible]
* (القسم الثالث المباحات) * وما من شىء من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها
معالى الدرجات فما اعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها العاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغى أن يستحقر
العبد شيأ من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذى قصد به هذا فى مباح
محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عقاب وفى حديث معاذ بن جبل أن
النبى صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطيبة بأصبعه
وعن لمسه ثوب اخيه وفى خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير
الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية فان قلت فما الذى يمكن
أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الاوقات
يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا او يقصد به اظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران او يقصد به رياء الخلق ليقوم له
الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة او ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور
اخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون انتن من الجيفة فى القيامة الا القصد الاول وهو التلذذ
والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسأل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيأ من مباح الدنيا لم يعذب
عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زبدة نعيم لا يفنى
وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك ايضا تعظيم المسجد
واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله الا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند
مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى ايذاء مخالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة
عن المغتابين اذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو

شريك في تلك المعصية كما قيل اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم اشار به الى أن التسبب الى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ربحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها اذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية في شئ والمباحات كثيرة ولا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف اني لاستحب أن يكون لي في كل شئ نية حتى في اكلي وشربي ونومي ودخولي الى الخلاء وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الاكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب اهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به امة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس من الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته بهما [illegible] قال ويقول هو في سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل الى ديوانه [illegible] تكرهه عن الجواب ففي الخبر ان العبد ليحاسب فتبطل اعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم [illegible] من الاعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يا رب هذه اعمال ما عملتها قط فيقال هذه اعمال الذين اغتابوك واذوك وظلموك وفي الخبر ان العبد ليوافي القيامة بحسنات امثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة فاياك ثم اياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن اتربه من حائط جاري فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فأتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال اني لم انسته لله تعالى ولا اريد أن اسويه لغير الله وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول [illegible] فيقول والله ما اعرفك فيقول بلى انت اخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وامثاله من الاخبار [illegible] قلوب المتقين فان كنت من اولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب احوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل اولا انك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك به من الآخرة وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذا علمت انه لا باعث الا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك والا فأمسك ثم راقب ليضا قلبك في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي لا يطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روي عن زكريا عليه السلام انه كان يعمل في حائط بالطين وكان اجير القوم فقدموا له رغيفه اذ كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني اعمل لقوم بالاجرة وقدموا الي الرغيف لاتقوى به على عملهم فلو اكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة الى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال [illegible] دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق اصابعه ثم قال لولا أني اخذته بدين لاحببت أن تأكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان اجابه فأكل فعليه وزران وان لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه اخاه لما يكره لو علمه فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الاعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه او تجارته او أكله نويت أن ادرس لله او أتجر لله او آكل لله ويظن أن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس او حديث لسان او فكر وانتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية

انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه
واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهى الطعام وأميل اليه او قول الفارغ نويت أن أعشق
فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشئ وميله اليه وتوجهه نحوه
الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق
للنفس الملائم لها وما لم يعتقد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك عبارة عن
اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه
وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص وبالاحوال
وبالاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه أن يوقع على نية الولد بل
لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد [illegible] على قلبه
أن اقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة [illegible] يقول
ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى اولا اعتقاد [illegible]
ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات [illegible]
وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه [illegible]
لمباشرة العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان نادرا فان لم
يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من
الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري
وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هاتي بالمدري فقالت أجي بالمرآة فيمكث ساعة
ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى [illegible]
ابن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان [illegible]
اذا سئل عملا من أعمال البر يقول ان رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان [illegible]
فلا يحدث ولا يسأل فيبتدئ فقيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية اذا حضرتني نية [illegible]
ابن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال [illegible]
ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الاسانيد فأنظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال [illegible]
علي حتى انظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به * وقيل لطاوس
ادع لنا فقال حتى أجد له نية وقال بعضهم أتاني طالب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير
مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا
لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا الا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن
العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت
بل هو انبعاث القلب بجري مجرى المفتوح من الله تعالى فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر في بعضها ثم من كان
الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في اكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير
فينبعث الى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد
وغاية أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه
بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر الا لراغب في الدنيا وهذه
اعز النيات وأعلاها ويعز على بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام ان منهم
من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان
نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل الى الموعود
في الآخرة وان كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة
فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها بعمله اذ أكثر أهل الجنة البله
وأما عبادة ذوي الالباب فانها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تكون مؤكدات
وروادف وهؤلاء ارفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم
بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم ولا يحرمون

عن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فان التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها والفهالها واعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء فعمى اكثر القلوب عن ابصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء فانها لا تبصر به اصلا ولا تلتفت اليه ولو كان لها عقل وذكرن لها الاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم * حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون منى الجنة الا أبا يزيد فانه يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال الي وروى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان الا على قول واحد قلت يوما اي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة اعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث اعمالا وافعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح اولى وانتقلت الفضيلة [illegible] بمبارات الفضيلة في حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الاكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالاكل والنوم هو الافضل له بل لو لم العبادة لو اظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة قال أبو الدرداء اني لاسجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق وقال علي كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها اذا اكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها الا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وانما يبتغي به أن يعيد اولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك الى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيما [illegible] لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على استاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من احواله فهما يسلمه لهما الى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق

(الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

* (فضيلة الاخلاص) *

قال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال ألا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله عز وجل هذه الامة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم وصلاتهم وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص سر من سري استودعته قلب من احببت من عبادي وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل وقال عليه السلام ما من عبد يخلص لله العمل اربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال عليه السلام اول من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد انعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت اتصدق به آناء الليل واطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب امرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت

أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي وقال يا أبا هريرة
اولئك اول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كاد
نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الآية * وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله
دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فاسه على عاتقه وقصد
الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال اين تريد رحمك الله قال اريد أن أقطع هذه الشجرة قال أنت
وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتي قال فاني لا اتركك أن تقطعها فصارعه
فأخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له ابليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال له ابليس يا هذا ان
الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في الارض
ولو شاء لبعثهم الى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وجلس على
صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وانفع قال وما هو قال أطلقني حتى أخبرك
فأطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير لا شيء لك انما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل أحيانا
وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الامر ولك علي أن أجعل لك كل
ليلة دينارين اذا اصبحت اخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك انفع لك من قطع
من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد
فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن اقطعها فاكون عاصيا بتركها وما ذكره
اكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى متعبده فبات فلما اصبح رأى دينارين عند رأسه
فأخذهما وكذلك الغد ثم اصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله ابليس
في صورة شيخ فقال له الى اين قال اقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها
فتناوله العابد ليفعل به كما فعل اول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين مخلبي العقاب
على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر أو لاذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني في اول مرة
كيف غلبتك اولا وغلبتني الآن فقال لانك غضبت اول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخر لي الله لك وهذه المرة
غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد من
الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي يتخلصي
وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة
لا يريد بها الا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى أبي موسى الاشعري من خلصت نيته كفاه الله
تعالى ما بينه وبين الناس وكتب بعض الاولياء الى اخ له أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب
السختياني تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الاعمال وكان مطرف يقول من صفا صفا له ومن تخلط
خلط عليه ورؤي بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت اعمالك فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى لحبة رمان لقطتها
من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات وكان
قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها
فقيل لي انه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل اجرك فيه ولو قلت في سبيل الله لوجدته
في حسناتك وفي رواية قال وكنت تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم الي فوجدت ذلك لا علي ولا لي قال سفيان
لما سمع هذا ما أحسن حاله اذ لم يكن عليه فقد احسن اليه * وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز
اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق
أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة
واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة
لا اعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة * وقال بعض الصوفية
كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث ارضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشيء
فقال أبو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك فقال سألني أن احج معه قلت
لا قلت فهلا فعلت قال ليس لي في الحج نية وقد نويت أن اقيم هذه الارض العشية فأخاف ان حججت معه لا احله
تعرضت لمقت الله تعالى لاني ادخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة ويروى عن

بعضهم قال غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت اشتريها فأنتفع بها فى غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال احدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان فى سبيل الله ثم نظر الىّ وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت الله الله فى امرى ماخرجت اتجر وما معى تجارة اتجر فيها ماخرجت الا للغزو فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبونى تاجرا فنظر الىّ صاحبه وقال ماترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى لان تصلى ركعتين فى خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا او سبعمائة بعلو وقال بعضهم فى اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا أبغض الله عبدا اعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا اعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الاعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسى مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص الى ابواب البر أجمع وقال محمد بن سعيد المروزى الاخلاص يرجع الى اصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى مافعل وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شئ يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا وسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فانما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا أن الشرك درجات فالاخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الالهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك فى القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع الى اجابة البواعث فهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه اذ قد ذكرنا ما يتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقوال مأثوره ما ورد فى الخبر من أن المرائى يدعى يوم القيامة بأربع اسام يا مرائى يا مخادع يا مشرك يا كافر وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر اما من الرياء او من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالجنة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب او يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه او يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له فى بلدة أو ليهرب عن عدوه فى منزله او يتبرم بأهله وولده او يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه اياما او ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم اسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجزها او يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال او ليكون عزيزا بين العشيرة او ليكون عقاره وماله محروسا بعز العلم عن الاطماع او اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث او تكفل بخدمة العلماء او الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس او لينال به رفقا فى الدنيا او كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه او حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء او توضأ لينتظف او تبرد او اغتسل لتطيب رائحته او روى الحديث ليعرف بعلو الاسناد أو اعتكف فى المسجد ليخف عليه كراء المسكن او صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام او ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها او تصدق على السائل ليقطع ابرامه فى السؤال عن نفسه او يعود مريضا ليعاد اذا مرض او يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله او يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك وقد قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قل أم كثر اذا تطرق الى العمل يكدر به صفوه ويزال به اخلاصه والانسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من افعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه

الله تجاوذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هى الباعثة وحدها فلا تخفى شدة الامر على صاحبه فيها وان كانت فيما اذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت اليه هذه الامور ثم هذه الشوائب اما أن تكون فى رتبة المزاحمة او فى رتبة المشاركة او فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى او أقوى منه او أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى مثل هذا الشخص لو أكل او شرب او قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة فنومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الاعمال مسدود عليه الا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك الا نادرا فاذا علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم انه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الاول لانى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس الى فى الصف الاول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الاعمال عن امثاله وقل من يتنبه له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأما الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستمتاع بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعى انه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك الى غيرك اذ لو انعطفوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل واجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة اكان غمه محمودا أو مذموما ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق وتسليمه الامر الى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد يخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الامر ثم اذا دهاه الامر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه الا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر

(بيان اقاويل الشيوخ فى الاخلاص)

قال السوسى الاخلاص فقد رؤية الاخلاص فان من شاهد فى اخلاصه الاخلاص فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وما ذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من

جملة الآفات والخالص ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفى معناه قول ابراهيم بن ادهم الاخلاص صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وهذا اشارة الى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو فى طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب الحق لذوى الالباب وجه الله تعالى فقط وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهية وماذكره حق ولكن القوم انما ارادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه [illegible] لا [illegible] حظهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال أبو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط وهذا اشارة الى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد وقال المحاسبى الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا اشارة الى مجرد نفى الرياء وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه اقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية العمل من الكدورات وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من اجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافى بيان سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم اذ سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما امرت وهذا اشارة الى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

(بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء الا بمثال وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء * فلنذكر منه مثالا فنقول الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ثم نظر اليه جماعة او دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن اطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين * الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه ويستمر فى صلاته كما كان فيأتيه فى معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم ان احسنت وعليك الوزر ان أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة وهذا اغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لارضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره اعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به اثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به * الدرجة الثالثة وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ويستحيى من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ويصلى فى الملأ أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته فى الخلوة

لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته فى الخلوة والملأ الى الخلق بل الاخلاص أن تكون مشاهدة الخلق لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكان نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلاة بين اظهر الناس ثم يتحرى من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلا والملأ وهيهات بل زوال ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات فى الخلا والملأ جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملأ والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان * الدرجة الرابعة وهى ادق وأخفى أن ينظر اليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق فى احواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص [illegible] الباطن بالشرك الخفى من الرياء وهذا الشرك اخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وبعد بعصمة الله تعالى [illegible] والا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن فى اوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوة الخفية او مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس [illegible] الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفى فى سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك فى ميله الى أحد المسجدين او أحد الموضعين اذا كان احسن [illegible] وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمرى الغش الذى يمزج [illegible] الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا [illegible] وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس اغمض من ذلك وأدق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم [illegible] سنة من جاهل واريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف فى نفسه وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبى فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير واللبيب لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء او حظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثوابا ام يقتضى عقابا ام لا يقتضى شيأ أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذى لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر فى المشوب وظاهر الاخبار تدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذى ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شئ من عقوبة القصد الفاسد * وكشف الغطاء عن هذا أن الاعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت

الصفتان فى القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وان كان احدهما غالبا لم يخل الغالب عن اثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن اثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير فى انارة القلب او تسويده وفى تقريبه من الله او ابعاده فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان فلم يكن له ولا عليه وان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا اجماع الامة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه واثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال انما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الاصلى وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا تنفك نفس السفر عن ثواب وما عندى ان الغزاة لا يدركون فى الغنيمة فرقا بين غزو الكفار فى جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال ادراك هذه الفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال اذا كان الباعث الاصلى والمزعج القوى هو اعلاء كلمة الله تعالى وانما الرغبة فى الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة أصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة فان قلت فالآيات والاخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفى معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف او قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ادنى الرياء شرك وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم يقال لمن اشرك فى عمله خذ اجرك ممن عملت له وروى عن عبادة ان الله عز وجل يقول أنا اغنى الاغنياء عن الشركة من عمل لى عملا فأشرك معى غيرى ودعت نصيبى لشريكى وروى ابو موسى ان اعرابيا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وقال عمر رضى الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغى شيأ من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغى شيأ من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوى وقد بينا انه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغى أن يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة أبدا فى خطر فانه لا يدرى أى الامرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن احوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص فى الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقد وعلى غزو طائفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة فمال الى جهة الاغنياء لاعلاء كلمة الله والغنيمة لا ثواب له على غزوه البتة ونعوذ بالله أن يكون الامر كذلك فان هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين لان امثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب فأما أن يكون فى احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن أن الباعث الاقوى هو قصد التقرب الى الله ويكون الاغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ فى الاحتياط فلذلك ينبغى أن يكون ابدا بعد كمال الاجتهاد متردد بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها اكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا اعتد بما ظهر من عملى وقال عبد العزيز بن ابى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة لم ادخلت فى شئ من أعمال الله تعالى الا وحاسبت

نفسي فوجدت نصيب الشيطان اوفى من نصيب الله ليته لالي ولا علي ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل لصد خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص وبهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم اباسعيد الخراز ويخفي في العمل [illegible] وسعيد في الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن امره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عن الاكثر أعماله فيتركها فقال ابو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لاجل الخلق شرك

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا * ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى [illegible] في معرض المدح والثناء فقال واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وقال تعالى واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس اربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحارث من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال ابو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل فقلت له احسن ما توجه العبد به الى الله ماذا قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب وقال ابو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة اركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثوري في قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ارحمني نفسه في دجلة فقال الشبلي ان كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما اغرق فرعون وقال بعضهم اجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني اسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها * لا كنز أنفع من العلم ولا مال اربح من الحلم ولا حسب اوضع من الغضب ولا قرين ازين من العمل ولا رفيق اشين من الجهل ولا شرف اعز من التقوى ولا كرم اوفى من ترك الهوى ولا عمل افضل من الفكر ولا حسنة اعلى من الصبر ولا سيئة اجرى من الكبر ولا دواء الين من الرفق ولا داء اوجع من الخرق ولا رسول اعدل من الحق ولا دليل انصح من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى اشقى من الجمع ولا حياة اطيب من الصحة ولا معيشة اهنأ من العفة ولا عبادة احسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس احفظ من الصمت ولا غائب اقرب من الموت * وقال محمد بن سعيد المروزي اذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة وقال ابو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذي النون هل للعبد الى صلاح اموره سبيل فقال

قد بقينا من الذنوب حيارى * نطلب الصدق ما اليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما اصل هذا الامر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد في قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا امر على خطر

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة في الصدق ثم هم ايضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شئ من الجملة فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه * (الصدق الاول) * صدق اللسان وذلك لا يكون الا في الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما أن يتعلق بالماضي او بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان احدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على خلاف ما هو عليه في نفسه الا أن ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون غلطه في ظنه فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق [illegible] الدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى المعاريض [illegible] اليه سبيلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورى بغيره وذلك كي لا ينتهي الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيرا او انمى خيرا ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع من اصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير فهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه اولى وطريقه ما حكي عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي باصبعك دائرة وضعي الاصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم انه ليس في الدار فالكمال الاول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض ايضا الا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله اياك نعبد وكقوله انا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله انا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبد النفسه او عبد الدنيا او عبد الشهوات فانه لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة سمي كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من اعتق أولا عن غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فخلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد تجاوز هذا الى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق ايضا عن ارادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب او ابعاد فتفنى ارادته في ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكن سكن وان ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما [illegible] من غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول * (الصدق الثاني) * في النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وما بطل يجوز أن يسمى كاذبا كما روينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت فيقال فعلت كذا وكذا فيقال الله تعالى كذبت بل اردت أن يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه انه يعتقد

ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع احد معاني الصدق
الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا * (الصدق الثالث) * صدق العزم فان الانسان
قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه او بشطره او ان لقيت عدوا في سبيل الله
تعالى قاتلت ولم ابال وان قتلت وان اعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم اعص الله تعالى بظلم ومثل الى [illegible]
العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف [illegible]
في العزيمة فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض [illegible]
كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي او كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى
والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو
نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه لان أقدم فتضرب عنقي احب الي من أن اتأمر
على قوم فيهم ابو بكر رضي الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر
رضي الله عنه واكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي الى
أن يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلي ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في [illegible]
من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته احب اليه من حياة ابي بكر الصديق * (الصدق الرابع) *
في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال اذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا سبقت الحقائق
وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا ايضا الصدق
فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روي عن انس أن عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما
والله لئن اراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما اصنع قال فشهد أحدا في العام القابل
فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا ابا عمرو الى اين فقال واها لريح الجنة اني اجده دون احد فقاتل حتى قتل
فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت اخته بنت النضر ما عرفت اختي الا بشيابه فنزلت هذه
الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه
يوم احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء اربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي
يرفع الناس اليه اعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوي فلا ادري قلنسوة عمر أو قلنسوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الايمان اذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم غائر فقتله
فهو في الدرجة الثالثة ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة
* وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس فعوهدا فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فقربه ومنهم من
عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين وقال بعضهم انما هو شيء توهموه في انفسهم لم يتكلموا به
فقال ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم
معرضون فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون فجعل العزم عهدا
وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق اشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكبح
عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال
لان اقدم فتضرب عنقي احب الي من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر اللهم الا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا
لا اجده الآن لاني لا آمن أن يثقل علي اذ ذاك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال ابو سعيد
الخراز رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لي صدقت وعرجا الى السماء
* (الصدق الخامس) * في الاعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على امر في باطنه لا يتصف هو به
لا بأن يترك الاعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر وهذا مخالف ما ذكرنا من ترك الرياء لان المرائي
هو الذي يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة
فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب
بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الاعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة

قوله فهو في الدرجة الثالثة هكذا في نسخة الاصل التي بيدي ولم يذكر فيها الدرجة الثانية وليحرر اه

السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مراءيا اياهم ولا يخرج من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره او خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا مخالفة الظاهر للباطن ان كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة وقال يزيد بن الحارث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته افضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته افضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا

اذا السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلان سرا فماله * على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا وقال معاوية [illegible] على بكاء بالليل بسام بالنهار وقال عبد الواحد كان الحسن اذا امر بشئ كان من اعمل الناس به واذا نهى [illegible] الناس له ولم ار أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه وكان ابو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ويبكى وقال ابو يعقوب النهرجورى الصدق موافقة الخلق فى السر والعلانية فاذا مساواة السريرة للعلانية احد أنواع الصدق * (الصدق السادس) * وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضى والتوكل والحب وسائر هذه الامور فان هذه الامور لها مبادئ تطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هى الشهوة الصادقة وقال الله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى قوله اولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله اولئك الذين صدقوا وسئل ابو ذر عن الايمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الايمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكن [illegible] فى غير صادق اى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه اذا خاف سلطانا او قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه اكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به اهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لم ار مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها فالتحقيق فى هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوى فاذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام احب أن اراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل ارنى فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الافق يعنى جوانب السماء فوقع النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فافاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن احدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تخوم الارض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعنى كالعصفور الصغير فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسرى بى وجبريل بالملأ الاعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنه لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله وقال مطرف ما من الناس احد الا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الحمق اهون من بعض وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير فالصادق اذا فى جميع المقامات عزيز ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة انا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت

نفسى حتى افرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق فقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع الا لابى موسى عليه السلام فهذا صدق فى هذه الامور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الاغلب لا تتعرض لاحاد هذه المعانى نعم قد قال ابو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم اوتاد الارض وكل هذا يدور على ما ذكرناه فى الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انى اذا احببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزوعا بنكوصه الى خلق خذلته ولا ابالى فاذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها ثم كتاب الصدق والاخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت * الرقيب على كل جارحة بما اجترحت * المطلع على ضمائر القلوب اذا هجست * الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت * الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض تحركت او سكنت * المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وان خفيت * المتفضل بقبول طاعات العباد وان صغرت * المتطول بالعفو عن معاصيهم وان كثرت * وانما يحاسبهم لتقرير ما احضرت * وتنظر فيما قدمت وأخرت * فتعلم انه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لتعذر الخلاص يوم القيامة وهلكت * وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت * فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملته * واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت * فبسبحات فضله اتسعت القلوب للايمان وانشرحت * وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت * وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت * وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان وانقطعت * وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات اذا ثقلت * وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت * فمنه العطاء والبراء * والابعاد والادناء * والاسعاد والاشقاء * والصلاة على محمد سيد الانبياء * وعلى آله السادة الاصفياء * وعلى اصحابه قادة الاتقياء * (أما بعد) فقد قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا وقال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا احصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد وقال تعالى يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه وقال تعالى واعلموا أن الله يعلم ما فى انفسكم فاحذروه * فعرف ارباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الانفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته الى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا انه لا ينجيهم منه الا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا انفسهم اولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضلها وتفصيل الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق